

فهرس الكتاب

الصفحة	
5	تقديم
13	مقدمة
17	كوسوفو/ كوسوفا بين النظرتين الصربية والألبانية
27	كيف يمكن للأساطير أن تقدس/ تؤدلج النزاع الاثني- السياسي
35	محاولات بلغراد لتصريب كوسوفو/ كوسوفا في فترة ما بين الحربين 1918 - 1939
53	كوسوفو/ كوسوفا في السنوات الحائرة بين ألبانيا ويوغسلافيا والبلقان 1918 - 1948م
71	كوسوفو/ كوسوفا: عقدة العلاقات الألبانية-اليوغسلافية في القرن العشرين
81	الحكم الذاتي في كوسوفو/ كوسوفا: من البداية إلى النهاية
91	ابعاد وآفاق الوضع المتفجر في كوسوفو/ كوسوفا: الاشارات المبكرة زالتي تجاهلتها بلغراد
97	الوضع في كوسوفو/ كوسوفا بعد اتفاقية تطبيع التعليم "اتفاقية أوسلو" الألبانية-الصربية: ظروف التوقيع- التجميد- التفعيل
113	ملاحق

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

في حين كانت أنظار العالم تتركز على مأساة البوسنة والهرسك، كانت خيوط مأساة أخرى تنسج في كوسوفا. ولقد انكشف عنها الغطاء في نهاية 1997 لتبدأ انفجارها وليبدأ من جديد تركيز الأنظار على البلقان، أي على حلقة أخرى من حلقات تفكك اتحاد الجمهوريات اليوغسلافية. وإذا كانت مجازر البوسنة قد هزّت وجدان وعقل "الإنسان" كما ساهمت في رفع الغطاء عن ذاكرة الأمة المسلمة حول "المسلمون المنسيون"، سواء في الاتحاد اليوغسلافي السابق أو في الاتحاد السوفيتي السابق (أزمة الشيشان)، فلقد جرى ذلك في نفس الوقت الذي كانت فيه ذاكرة جديدة تتشكل للعالم في نهاية القرن العشرين مع انتهاء عصر الحرب الباردة والقبطية الثنائية.

ولهذا وكعهده دائماً –وهكذا يقول لنا التاريخ- يدخل البلقان دائرة الضوء في الوقت الذي يجري فيه عمليات التحول في التوازنات العالمية وفي التوازنات الأوروبية. وبقدر ما يصبح البلقان ساحة هامة من ساحات اختبار هذه التحولات بقدر ما تنعكس هذه التحولات بدورها على التوازنات البلقانية الحرجة والحساسة بحكم التاريخ والجغرافيا والديمقراطية. ولهذا فإن فهم ما جرى في البوسنة حتى الآن (وما يمكن أن يحدث منذ الآن) وكذلك ما يجري في كوسوفا وما يمكن أن يسفر عنه لا يمكن أن يتحقق بصورة سليمة بدون تمكين سياق المرحلة الراهنة بين مراحل تطور تاريخ هذه المنطقة –برمتها- وفي قلبها مسلميها من البوسنيين والألبان. فلقد تعرّضت خريطة المنطقة وتوازياتها الإقليمية لعمليات تشكيل وإعادة تشكيل متعاقبة تحت تأثير ميراث تصفية الحكم العثماني ثم الحربين العالميتين، كما أن المنطقة تتعرض من جديد لإعادة تشكيل أخرى أفرزت أزمات النزاع في البوسنة والهرسك ثم في كوسوفا. بعبارة أخرى إذا كانت الأحداث خلال الأشهر الأخيرة في كوسوفا تطرح مجموعة من الأسئلة حول سيناريوهات المستقبل فإن الإجابة على هذه الأسئلة لا يمكن أن تنفصل عن مدلولات الخبرة التاريخية للإطار الأوسع المحيط بالأزمة. فإن أزمة كوسوفا الراهنة ليست إلا نتاج نسيج ممتد ومتداخل ومتكرر التآزم على المسرح البلقاني.

ومن هنا أهمية "التحليل التاريخي" لتعميق وترشيد التحليل السياسي الراهن من ناحية، ولاختبار مقولاته وافتراضاته وإشكالياته من ناحية أخرى.

ومن هنا أهمية العمل الذي يقدمه لنا د. محمد م. الأرنؤوط المؤرخ لشئون البلقان. ولقد حظي التاريخ الحضاري والسياسي للإسلام في البلقان باهتمام علمه وفكره وقلمه من زوايا عدة، وعلى سبيل المثال نذكر العناوين التالية: "الإسلام والقومية في البلقان: دور الدين في تشكيل الشعوب"، و"الإسلام الهجرة - نموذج البوسنة" و"الإسلام في يوغسلافيا: من بلغراد إلى سراييفو" و"دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان".

ومن ثم يمثل كتاب "كوسوفو/ كوسوفا بؤرة النزاع الألباني الصربي في القرن العشرين" زاوية أخرى من زوايا الاهتمام بالتاريخ البلقاني وتنطلق منه ولا تنفصل عنه أحداث الأزمة الراهنة في كوسوفا.

فهذا الكتاب قاعدة لا غنى عنها للانطلاق من نتائجها ومدلولاتها نحو تحليل تحديات الأزمة الراهنة واحتمالات تطورها وسيناريوهات حلها زفي ظل طبيعة التوازنات العالمية والتوازنات الأوروبية المحيطة بالبلقان.

وتزداد أهمية هذا الكتاب على ضوء مصادره فهي في جانب كبير منها مصادر ألبانية وصربية. كما أنه لا يصدر عن منهج تاريخي تقليدي يتابع سرد الأحداث بتفاصيلها الزمنية والمكانية ولكن يقدم تحليلاً تاريخياً أفضياً بالتركيب على محاور محددة ومن زوايا متنوعة مما يضعه في نطاق المنهجية التاريخية الحديثة.

- وإذا كان الكتاب يتكون من 9 فصول فإن محتوى هذه الفصول تترجم وبطريقة تفصيلية ولكن تراكمية "العنوان". حيث يمتد هذا المحتوى عبر القرن العشرين بصفة خاصة (ومع امتدادات إلى قرون سابقة أحياناً) ولكن من زوايا مختلفة تقدم في تراكمها تشریحاً لأسس هذا النزاع وجذوره وتطوراتِه ومحاولات حله وصولاً إلى أركان الأزمة الراهنة في نهاية القرن العشرين.

ويمكن تقسيم هذه الفصول إلى ثلاث مجموعات من الموضوعات:
- المجموعة الأولى تتكون من الفصول الثلاثة الأولى وتلقي الضوء على الأبعاد العرقية-الدينية للنزاع. ولهذا يبدأ الفصل الأول بعرض مدخلين للنزاع (الأرض، الشعب) تنقسم حولهما الرؤيتان الصربية والألبانية على نحو يبرز ويفسر التصورات المتناقضة للجانبين حول مستقبل حل الأزمة.

ويتناول الفصل الثاني شرح التطور -عبر قرون التاريخ- حول دلالة الاسم- كوسوفو/ كوسوفا. أما الفصل الثالث فيوضح كيف تم في البداية -تقديس- النزاع الإثني-السياسي بين الخطابين الألباني الإسلامي من ناحية، والصربي المسيحي الأرثوذكسي من ناحية أخرى، ثم كيف حدث -بعد الحرب العالمية الثانية- أدلجة النزاع نتيجة الخلاف الأيديولوجي بين أجنحة الشيوعية في انعكاسات هذا الخلاف على أوروبا الشرقية وعلى ألبانيا ويوغسلافيا بصفة خاصة، ثم يبيّن الفصل الثالث كيف عادت نزعة التقديس لتحيط من جديد بالصراع الحالي في كوسوفا. ولهذا فهو لا يعد نزاعاً عادياً في نهاية القرن العشرين كما يقول المؤلف..

أما المجموعة الثانية: فهي تنتقل بالتحليل من الأبعاد العرقية الدينية للصراع إلى مجال السياسات والإجراءات والقوانين التي ترجمت هذه الأبعاد على ساحة الوضع القائم سواء من الجانب الصربي أو من جانب القوى الكبرى أو في الداخل الألباني والصربي. ولذا فإن الفصل الرابع يتناول محاولات بلغراد تصريب كوسوفا منذ احتلالها (1918- 1939)، ولقد جاءت هذه المحاولات في إطار إدارة المشكلة الألبانية بصفة عامة.

وحيث لم يكن من الممكن أن يظل التحليل التاريخي قاصراً على أدوار الأطراف الأصلية في النواع أي الألبان والصرب، لذا فإن الفصل الخامس انتقل إلى تحليل وضع العلاقة بين ألبانيا ويوغسلافيا في نطاق التفاعلات بين القوى الكبرى، وخاصاً النمسا وروسيا، وعلى صعد سياساتها تجاه البلقان. ومن أهم القضايا التي طرحها هذا الفصل قضية "الفيدرالية البلقانية" التي تبنتها الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الشيوعية، وكيف ظهرت الفكرة وتطورت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وكيف أثرت مواقف موسكو في ظل حكم ستالين على فشل هذه الفكرة التي حملت في طياتها المساواة بين القوميات وحق تقرير المصير، مما كان يفسح الطريق أمام أحد الحلول لمشكلة كوسوفا أي الحل في ظل فيدرالية بين يوغسلافيا وألبانيا. فلقد كان لخلاف بين ستالين وتيتو أثر صا كبير صا على المشكلة الألبانية وعلى مشكلة كوسوفا التي أضحت تواجه مصيرها منفردة في إطار يوغسلافيا.

- وتتكون المجموعة الثالثة من الفصول الثلاثة الأخيرة في الكتاب وهي التي تقترب بنا من المرحلة الراهنة للأزمة القائمة. فيتضمن الفصل السابع عرضاً لكيفية ظهور فكرة الحكم الذاتي وتأسيسه وأبعاده ومدلولاتها في ظل دستور 1974، كما يبيّن كيفية إلغاءه 1989 ومحاولات استعادته ولكن في إطار جديد، أي أن تتحول كوسوفا إلى جمهورية ذات حكم ذاتي واسع علة نمط جمهورية الصرب في البوسنة. وهذا هو البديل الثالث إلى جانب بديلين سابقين أشار إليهما الكتاب من قبل وإن كانا قد طرحا في ظروف تاريخية مختلفة وهما الفيدرالية البلقانية والكونفدرالية الألبانية اليوغسلافية.

أما الفصل الثامن فيبرز أمراً هاماً وهو كيف أن كوسوفا -طوال عقد التسعينيات وحتى 1997- لم تغب عن اهتمام الغرب الذي وجّه بشأنها تحذيرات عدة لبلغراد لم تلق الأخيرة لها بالأ.

أما الفصل التاسع: فيتضمن أولاً: بياناً لكيفية تبلور خط النضال السلمي بقيادة روجوفا والذي لم يفرز حتى نهاية 1997 إلا اتفاقية التعليم مع الصرب (والتأسماها المؤلف "اتفاقية أوسلو") والتي لم يتم تطبيقها، ثم يبيّن كيف تبلور خط النضال العسكري نتيجة الاحباط من فشل خط النضال السلمي.

وأخيراً، فإن الكتاب يتضمن في نهايته مجموعة من الملاحق تنقسم بين ثلاث فئات: الأولى: تتضمن بعض الوثائق الهامة، أما الفئة الثانية: فتتضمن عروضاً لثلاثة من أحداث الكتب عن الموضوع صدرت بالإنجليزية والصربية والألبانية، وتتضمن الفئة الثالثة: مجموعة من الخرائط.

وعلى هذا النحو، فإن الشكل الذي يصدر عليه الكتاب فضلاً عن محتواه يمثل إضافة إلى المكتبة العربية في الشأن البلقاني بصفة عامة وفي قضية كوسوفا بصفة خاصة.

ويسعد مركز الحضارة للدراسات السياسية أن ينشر هذا العمل الرائد بالغة العربية- لعديد من الاعتبارات التي يتزاج على صعيدها أهمية الموضوع مع رسالة المركز وأهدافه البحثية.

فبعد نشر أعمال مشروع العلاقات الدولية في الإسلام (12 جزء) حول العلاقات الدولية في الأصول الإسلامية والتاريخ الإسلامي فإن هدف المركز هو متابعة أعمال هذا المشروع وعلى صعد قضايا الأمة الإسلامية ومشاكل علاقاتها الخارجية في ظل النظام الدولي لمعاصر، سعيًا نحو تدعيم وعي الأمة بجل القضايا التي تمس مختلف الشعوب الإسلامية. ومما لا شك فيه أن تحقيق هذا الهدف يستدعي تضافر وتعاون التخصصات المختلفة ومنها تخصص التاريخ والعلوم السياسية، والذي يقدم لنا كتاب د. محمد م. الأرنؤزط نموذجًا عليه.

من ناحية أخرى تعد قضية كوسوفا من بين هذه القضايا الراهنة التي تستوجب الاهتمام من جانب قلب الدائرة العربية الإسلامية نظرًا للروابط الهامة بين قضايا المسلمين المختلفة عبر أرجاء العالم. ومن ثم فإن دراسة قضية كوسوفا ومن قبلها البوسنة -وكانت شؤون البلقان غائبة من قبل عن الاهتمامات البحثية العربية الإسلامية في مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية- تقدم الكثير من الدلالات حول هذا الروابط. وليس من الغريب أن نسمع عن المقارنة بين قضية كوسوفا وقضية فلسطين، أو أن نسمع عن المؤامرة ضد الإسلام والمسلمين في البلقان وهي تدخل حلقة جديدة بعد حلقات سابقة في التاريخ.

ولهذا بادر المراكز بتنظيم ندوة حول "كوسوفا بين التاريخ والأزمة الراهنة" بالمشاركة مع مركز البحوث والدراسات السياسية -جامعة القاهرة. وانعقدت الندوة في رحاب كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في 1998/4/29 وناقشت ورقتي عمل من إعداد د. محمد م. الأرنؤزط ود. نادية مصطفى وشارك فيها عدد من أساتذة الجامعة والمفكرين والباحثين. ولقد افتتح الندوة أ.د. علي الدين هلال عميد الكلية الذي نبّه إلى أهمية دراسة القضية.

ومن ناحية أخرى ومع القيام على إعداد دراسة شاملة عن أبعاد الأزمة الراهنة وتطورات الساحة الداخلية في كوسوفا والجهود الدولية تجاهها، وهي التي ستنتشر في بداية العام القادم بإذن الله بين أعمال "التقرير السنوي عن حال الأمة" الذي ينظم المراكز إصداره، يأتي نشر هذا الكتاب ليمثل بمضمونه -كما سبق وأوضحنا- حلقة الوصل بين الجذور التاريخية للأزمة وبين واقعها الراهن -وهذه الحلقة تصبح لا غنى عنها لدراسة قضية مثل قضية كوسوفا وغيرها من قضايا المسلمين في البلقان ومناطق أخرى- وخاصة الاتحاد السوفيتي السابق- لا ينفك بصددهما التاريخ عن السياسة تالراهنه، ولا تقلت السياسة الراهنة حولهما من إसार خبرة التاريخ.

والحمد لله

مقدمة

تعود فكرة هذا الكتاب إلى عام 1992 حين اتصلت بي دار النشر اللندنية "هيرست" وكلفتني بتأليف كتاب عن كوسوفو/موسوفا⁽¹⁾. وفي الواقع لقد كان هناك اهتمام مبكر في الغرب بالمشكلة الكامنة هناك، التي كانت لا تزال تحت السطح، والتي كانت مرشحة للانفجار على نمط يختلف تمامًا عن بقية يوغسلافيا السائرة نحو الانهيار. فنظرًا للتداخل الاثني-الصربي-الألباني في كوسوفو/كوسوفا، والتقدّيس الديني-القومي لها، والتشابك الإقليمي-البلقاني المجاور، كان هناك تخوف من أن النزاع لن ينحصر بين أقلية صربية وأغلبية ألبانية في كوسوفو بل يمكن أن يتسع ليشمل أكبر شعبين في غرب البلقان: الصرب (مع امتدادهم في صربيا والجبل الأسود والبوسنة) والألبان (مع امتدادهم في مقدونيا والجبل الأسود وألبانيا)، والدول المجاورة (مقدونيا وبلغاريا واليونان وتركيا).

ولكن مع تطور الحرب في البوسنة خلال 1992-1993، التي تحولت إلى مأساة لم تعرف مثلها أوروبا في النصف الثاني للقرن العشرين، وظروف العمل توقفت عند منتصف الكتاب (نهاية الفصل الرابع) وانشغلت بإنجاز كتاب آخر عن "الإسلام في يوغسلافيا: من بلغراد إلى سراييفو" (عمان 1993)، وذلك تحت ضغط ما كان ينشر حينئذ في اللغة العربية⁽²⁾.

وفي الحقيقة أن مشكلة مأساة البوسنة كشفت فيما كشفت عن مستوى معرفتنا وشكل اهتمامنا وأسلوب تعاملنا مع مثل هذه القضايا. فعلى الرغم من الصلات التاريخية (التقافية والدينية) والسياسية-الاقتصادية المعاصرة مع دول البلقان، وخاصة مع يوغسلافيا، لم يصل الأمر في الجامعات ومراكز الأبحاث العديدة إلى خلق اهتمام مبرمج وتشكيل كوادرات متخصصة تتابع وترصد وتحلل وتتنبأ بما يمكن أن يحدث. وفي غياب ذلك أعدت على عجل كتب بعناوين وأغلفة مثيرة تسوق نفسها بسرعة، ويعود الصمت مرة أخرى بعد انتهاء الحرب في البوسنة دون أن يعني هذا أن الحرب قد انتهت بالفعل، وأنه لم يعد هناك حاجة لتأليف كتب أخرى ترصد احتمالات المستقبل.

وقد تكرر هذا الأمر بشار الوضع في كوسوفو/كوسوفا.

(1) مع أن القاموس الصربي-العربي اعتمد صيغة كوسوفا الألبانية التي شاعت في المشرق خلال السبعينيات والثمانينات، إلا أن الصيغة الصربية كوسوفو شاعت أيضًا في الشهور الأخيرة، ولذا كل تم هنا اعتماد هذه الصيغة المركبة "كوسوفو/كوسوفا": حسن كلشي - كامل البوهي، قاموس صربو كرواتي-عربي، سراييفو 1988، ص.

(2) صدر في اللغة العربية خلال 1992-1996 حوالي 25 كتابًا حول البوسنة، مع تفاوت كبير فيما بينها من حيث المضمون والمنهج، ولذلك فقد برمجت ندوة

حول هذه الكتب في معهد بيت الحكمة-الأردن خلال 1996 إلا أنها تأجلت ثلاث مرات لظروف مختلفة حتى أُلغيت أخيرًا.

وبالمقارنة مع البوسنة، التي كانت هناك بعض المعلومات والدراسات القليلة منها، فقد كشفت مشكلة كوسوفو/كوسوفا عن مدى معرفتنا/عدم معرفتنا بما يحيط بنا من شعوب وكيانات وأزمات ومستجدات إقليمية. وعلى الرغم من حساسية وخطورة الأزمة في كوسوفو/كوسوفا وإمكانية تطورها لتشمل شرق المتوسط، لا شرق آسيا، فقد بقيت تقارير وكالات الأنباء الأجنبية والتعليقات الصحفية الحذرة وبعض التحقيقات، مع ما فيها من تناقض أحياناً، هي المصدر الأساسي لمعرفة ما يجري وما يمكن أن يجري هناك، وذلك في غياب دراسات مرجعية عن لمنطقة المرشحة للانفجار منذ عشر سنوات.

وعلى الرغم من المساهمة في إلقاء بعض المحاضرات في عدة جامعات خلال ربيع 1998 إلا أن المشاركة في الندوة الخاصة (الأولى والوحيدة حتى الآن) التي نظمت خلال نيسان/أبريل 1998 في القاهرة، بالتعاون ما بين مركز الحضارة للدراسات السياسية ومركز البحوث والدراسات السياسية في جامعة القاهرة، أبرزت الحاجة إلى مزيد من مثل الأوراق والمناقشات الجادة التي ميزت ندوة القاهرة. وفي هذا الإطار ظهرت فكرة هذا الكتاب في القاهرة، كبديل مؤقت عن الكتاب الأول الذي أمل أن أنتهي منه قريباً.

ولذلك يرى القارئ أن ذا الكتاب يجمع ما بين المقالات التي نشرت في جريدة "الحياة"، والدراسات التي نشرت في بعض الدوريات (الندوة والفكر السياسي وشؤون الأوسط)، والملاحق التي تكمل بعض الإشارات المرجعية أو تسد بعض الثغرات في المقالات والدراسات، بحيث تشكل كلاً متكاملًا يحاول أن يوضع جذور هذا النزاع وتطورات وآفاقه. ولا يسعني أخيراً سوى أن أشكر أ.د. نادية مصطفى أستاذة العلاقات الدولية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية/جامعة القاهرة ومديرة مركز الحضارة والدراسات السياسية، التي رعن هذا الكتاب منذ اللحظة-الفكرة الأولى وحتى صدوره باعتباره ضمن اهتمامات هذا المركز الذي يسعى إلى تكريس تقاليد للبحث والنشر من رؤية استراتيجية، والتي تكرمت بتقديم الكتاب أيضاً حيث لم تنترط لي ما أضيف على ما ورد فيه.

د. محمد م. الأرنؤوط

معهد بيت الحكمة- جامعة آل البيت

الأردن